الميراث

قصة: فيرجينيا وولف

من بين مجموعة الخواتم ودبابيس الزينة التي تركتها زوجته عقب وفاتها وجد جيلبرت كلاندون دبوس زينة مصنوعا من اللؤلؤ ومكتوبا عليه "إلى سيسي ميلر مع حبي".

وهكذا كانت زوجته آنجيلا تتذكر كل التفاصيل والأشخاص حتى سكرتيرتها سيسي ميلر. ولكن ما أثار استغراب جيلبرت وعجبه هو تصنيف آنجيلا الدقيق للهدايا التي أعدتها لصديقاتها ، فترى كل هدية وقد كتب عليها اسم صاحبها وكأنها كانت تتوقع وفاتها. مع أنه يذكر تماما أنها كانت في أفضل حال عندما لقيت حتفها في حادث سيارة من ستة أسابيع مضت أثناء عبورها أحد الشوارع في بيكاديللي .

كان جيلبرت في انتظار سيسي ميلر ليسلمها هديتها. فقد شعر حينها أنه يدين لها بالكثير بعد كل ما أسدته لهم من خدمة طوال سنوات عملها معهم. تابع جيلبرت ترتيب وتصنيف أغراض زوجته التي أعدت كل شئ في نظام عجيب ، وتركت لكل واحد من أصدقائها عربون مودة . كان لكل خاتم وقلادة وصندوق مكانة في قلب آنجيلا حتى أنها جعلت لكل صندوق اسما. وكانت لنفس الأشياء ذكرى خاصة في نفس جيلبرت. فهذا هو الدولفين ذو العينين القرمزيتين الذي أهداه لها أثناء رحلتهم إلى فينيس. كما أنه يتذكر تماما كيف ألحت عليه لتشتريه وكيف صاحت في سعادة حين فعل.

ولم تترك آنجيلا لجيلبرت شيئا مميزا اللهم إلا يومياتها التي تتألف من خمسة عشر مجلدا غُلِّفوا بغلاف أخضر. فقد اعتادت آنجيلا منذ زواجهما على كتابة اليوميات التي كان يدور بعضها حول المشادات التي كانت تدور بينهما ، فخلافاتهما لم تَرْق أبدا إلى مستوى الشجار. وكان يصادف في كثير من الأحيان أن يمر عليها وهي تكتب يومياتها ، فيقترب منها ليقرأ ما تكتب ، فما يكون منها إلا أن تغلق الدفتر قائلة: لا...لا...لا... ربما حين أموت! وهكذا تركت يومياتها له كميراث . وكانت هذه اليوميات الشيء الوحيد الذي لم يتشاركه الزوجان معا. وكان جيلبرت يؤمن إيمانا راسخا أنها ستعيش بعده . آه ... لو أنها تريثت قليلا قبل عبورها الشارع ، لكانت الآن على قيد الحياة ، ولكن تهَوُّرها هو الذي أودى بحياتها حتى أن السائق نفسه قال في التحقيق أنها لم تعطه الفرصة ليتوقف .

انتزع صوت الخادمة جيلبرت من خواطره وهي تقول : "وصلت سيسي ميلر" . لم يسبق لجيلبرت أن رآها وحيدة أو باكية قط . كانت تبدو بائسة جدا ولا عجب ، فآنجيلا كانت بالنسبة لها أكثر من مديرة عمل ، كانت لها الصديقة والرفيقة . أخذت الأفكار تدور في رأسه وهو يسحب لها كرسيا ويسألها الجلوس. كان من الصعب تمييزها عن مثيلاتها من النساء ، فهناك الآلاف من السيسي ميلرز ذوات الحجم الضئيل والحقائب الجلدية . ولكن آنجيلا اكتشفت بفراستها المعدن الحقيقي لسيسي ميلر، فقد كانت شديدة التحفظ والهدوء وأهلا للثقة .

لم تستطع ميلر الحديث في البداية. أخرجت منديلا من حقيبتها وأخذت تجفف دموعها. وأخيرا تحدثت بصعوبة: "اعذرني يا سيد كلاندون " . أطرق جيلبرت

برأســه ألا بــأس ، فهـو يتفهم بطبيعة الحال مقدار الصداقــة التــي ربطت إحداهمــا بالأخرى . أردفت ميلر في هدوء: " لقد سعدت كثيرا بوجودي هنا يا سيدي." قالت ذلك وهي تنظر إلــى طاولة الكتابة خلفه . فهنــا عملا معـا : هــي وآنجيـلا.

وتذكر كيف كان يقع على كاهل آنجيلا عبء كبير ، ذلك العبء الذي يقع عادة على كاهل زوجة أي رجل سياسي بارز. كانت آنجيلا عونا كبيرا له في مهنته. وكان كثيرا ما يراهما جالستان معا ، آنجيلا على طاولة الكتابة وسيسي على الآلة الكاتبة تكتب ما تمليه عليها صحابتها من رسائل . لا ريب في أن هذا الأمر دار في مخيلة ميلر كذلك .

أما الآن فكل ما عليه فعله هو أن يهديها دبوس الزينة ذاك ، والذي بدا له غير كاف للتعبير عن شكره وامتنانه . ألم يكن من الأفضل لو كانت الهدية مبلغا من المال أو حتى آلة الكتابة تلك ؟! ولكن هكذا أرادت آنجيلا ، فلها ما أرادت . أعطى جيلبرت ميلر الدبوس بعد أن ألقى كلمة كان قد أعدها آنفا. وأخبرها أنه يعلم تماما أنها ستحافظ عليه ، فلطالما ارتدته زوجته. وأخذته بعد أن ألقت كلمتها كذلك ووعدت بأنها ستحفظه بين مقتنياتها الثمينة.

كان يعلم تماما أن هذا الدبوس قد لا يكون مناسبا على بعض ملابسها. فقد كانت ترتدي ذاك اليوم معطفا وتنورة سوداوين واللذين باتا زي وظيفتها الرسمي. وما لبث أن تذكر أنها في حداد كذلك . فقد توفي أخوها الوحيد في حادث مشابه لحادث آنجيلا قبل وفاة الأخيرة بأسبوع أو اثنين. وتذكر كذلك كم حزنت آنجيلا على وفاته حزنا شديدا وعزى ذلك إلى ميلها الفطري للتعاطف مع الآخرين .

وهنا نهضت ميلر وارتدت قفازها ، فلم ترغب أن تكون ضيفة ثقيلة. غير أن جيلبرت لم يكن ليترك صديقة زوجته ترحل دون أن يسألها عما تنوي فعله وما إذا كانت تحتاج للمساعدة . ولم تجب ميلر فورا فقد كانت غارقة في أفكارها وهي تحدق إلى طاولة الكتابة ذاتها ، وتراءى له أنها لم تفهم ما يعني فأعاد السؤال مرة أخرى:

" ماذا تنوين أن تفعلي الآن يا آنسة ميلر؟"

أجابت سيسي قائلة:

ــ " ماذا أنوي أن أفعل ؟! لا عليك يا سيد كلاندون. لا تقلق بشأني، سأكون على ما يرام " .

وفهم من جوابها أنها ليست بحاجة للمال. ثم رأى أنه سيكون من الأفضل لو يرسل لها برسالة يعرض فيها بعض الاقتراحات التي قد تعينها مستقبلا . واكتفى بأن بأن صافحها بحرارة وهو يقول:

" أريدك أن تعرفي أنه سيسرني مساعدتك في أي وقت " .

وما إن همت بالخروج حتى وقفت فجأة كأنما تذكرت شيئا وأردفت:

" سيد كلاندون ، أريدك أن تعلم أنه سيسرني أنا كذلك تقديم المساعدة لك في أي وقت " .

قالتها بكل ثقة وانصرفت . قالتها كما لو كان عندها يقين أو حتى مجرد أمل بأنه ربما يحتاج يوما ما لمساعدتها . وجالت برأسه خاطرة بدت له مستحيلة إلى حد بعيد وهي أنه ربما كانت سيسي معجبة به طوال تلك السنوات . وأخذ جيلبرت يتأمل نفسه

أمام المرآة ، ولم يتمالك نفسه من الاعتراف بأنه رغم تجاوزه للخمسين فإنه لا يزال يتمتع بدرجة كبيرة من الوسامة والجاذبية . " المسكينة " قالها وهو يكتم ضحكته ، وتمنى لو كانت زوجته على قيد الحياة ليشاركها تلك النكتة.

وعاد جيلبرت كلاندون يستأنف قراءة اليوميات . وكان هذه أول عبارة وقعت عليها عيناه : " جيلبرت كان رائعا ، كم أنا فخورة بأنه زوجي ! " كانا مدعوان للعشاء في تلك الليلة بمناسبة فوزه في البرلمان . كانت آنجيلا رائعة الجمال ، ولطالما كان هو كذلك فخورا بكونها زوجته . وعاد بذاكرته إلى تلك الأيام التي كان يخرج فيها مع آنجيلا للعشاء ، وتذكر كيف كان ينظر إليها أثناء جلوسهما معا ويقول لنفسه :" إنها أجمل امرأة رأيتها في حياتي " . استمر جيلبرت في القراءة : " في تلك الليلة حضر جمهور الناخبين ، وصفق الجمهور بحرارة لدا رؤية جيلبرت . ثم قاموا وبدأوا يغنون: " يا له من شخص رائع " . حينها شعرت بسعادة غامرة ". وتذكر جيلبرت كيف كانت آنجيلا سعيدة حينها حتى أن عينيها اغرورقتا بالدموع .

وبعد هذه الحفلة بأيام سافروا إلى فينيس وقضوا هناك إجازة سعيدة . " أطلعني جيلبرت على تاريخ تلك المدينة بالتفصيل " . وتذكر جيلبرت كيف كانت آنجيلا حريصة على التعلم وكيف كانت هذه إحدى متع السفر معها . كانت آنجيلا كثيرا ما تعترف بجهلها كما لو لم تكن هذه إحدى ميزاتها !

وبدأ جيلبرت بقراءة المجلد الثاني . كانوا قد عادوا إلى لندن حينها . " تناولنا العشاء في مجلس العموم ، وقضينا أمسية رائعة في لوف جروفز . " ثم تناول جيلبرت مجلدا آخر وقد انهمك في القراءة . وتبين له من خلال يوميات زوجته كم

انغمس هو في حياة السياسة وكم أحست هـي بالوحدة والفراغ . ووقعت عينــاه علــى تلك العبارة : " كم كنت أتمنى لو كان لجيلبرت ابن " . تعجب جيلبرت كثيرا لتلك الأمنية ، فهو لم يفكر قط في الإنجاب ولم يشغل هذا الموضوع تفكيره مطلقا. فالحياة بالنسبة له كانت حافلة كفاية بالعمل والأحداث . لكن من الواضح أنها لم تكن كذلك بالنسبة لآنجيلا . في تلك السنة حصل جيلبرت على منصب صغير في الحكومـة ، ورغم صغره إلا أن تعليق آنجيلا جاء كالتالي: " ما من شك لدي في أنه سيصبح يوما رئيسا للوزراء " ! ربما لو أخذت الأمور منحا مختلفا ، لكان هذا . توقف قليلا ليفكر في الأمر، إن السياسة لعبة كالمقامرة ولكنها لازلت قائمة ولم تنته وهو بعد في الخمسين . ومر جيلبرت على بقية الصفحات بسرعة ، فقد كانت عبارة عن سلسلة من الأحداث اليومية السعيدة والتافهة والتي كانت في ذات الوقت محور حياة آنجيلا .

وفي بداية المجلد التالي قرأ جيلبرت تلك السطور: " جبانة! لقد ضيعت فرصة التحدث معه في هذا الموضوع للمرة الثانية . ولكن جيلبرت لديه ما يكفي من المشاغل " . أخذ جيلبرت يسأل نفسه: " ترى إلام ترمي؟ " وإذ بالإجابة تأتيه بعد عدة أسطر: " واتتني الشجاعة أخيرا لأحادث جيلبرت في الموضوع ، وقد وافق علـى الفور" . وتذكر أخيرا فحوى الحوار ، فقد أخبرته آنجيلا كم كانت تحس بالوحدة والفراغ . وأخبرته برغبتها في الحصول على عمل تشعر من خلاله بقيمتها وتتمكن فيه من تقديم المساعدة للآخرين . يذكر جيلبرت جيدا كم احمرت وجنتاها وهي ترجو موافقتــه حينهـا ، ولــم يكن لديــه أي مـانع وكـان شرطـه الوحيد ألا ترهق نفسهـا.

وهكذا ، بدأت آنجيلا العمل وأخذت الأمر بجدية حتى أن اليوميات غدت مليئة بالأحداث مثل : " رأيت السيدة جونز التي فقد زوجها ذراعه في حادث ، ولديهم عشرة من الأطفال " . فعلت ما بوسعي لأجد وظيفة لليلي " .

ومضى يقلب الصفحات ولاحظ أن ذكر اسمه بدأ يقل مع مرور الوقت . بل وأكثر من ذلك ، فقد لا حظ ورود الحروف الأولى من اسم شخص لم يسمع به من قبل . ففي أحد السطور وقعت عينيه على العبارة التالية : " كان حوارا ساخنا مع ب.م حول الاشتراكية " . ترى من تكون؟! أتكون إحدى أولئك اللاتي التقت بهن أثناء حضورها أحد الاجتماعات . ثم استأنف القراءة : " أخذ ب.م يقدح في الطبقة الأرسقراطية . وتَبِعتُه بعد المقابلة لأقنعه بوجهة نظري ، ولكن من الواضح أن ب.م كان شخصا ضيق الأفق ." وهنا أطرق جيلبرت مفكرا : " إذا ب.م هو رجل وليس امرأة !" هو واحد من أولئك الذين يطلقون على أنفسهم اسم " المثقفين" ، والذين هم في حقيقة الأمر أشخاص ضيقي الأفق وصارمين كما قالت عنهم آنجيلا " .

من الواضح أن آنجيلا دعت ب.م هذا إلى المنزل ليراها : "دعوت ب.م إلى العشاء " . ويعود ذكر ب.م ثانية : " ذهبت مع ب.م إلى برج لندن . قال لي أن الثورة ستندلع قريبا وأننا نعيش في أحلام اليقظة " . هذا هو بالضبط ما توقع جيلبرت أن يقوله شخص مثل ب.م ذاك . كان من وجهة نظر جيلبرت رجلا بدينا وقصيرا ذا لحية خشنة وربطة عنق حمراء . ومن ذلك النوع من الأشخاص الذين لم

يقوموا بعمل شريف واحد في حياتهم . بالطبع كانت آنجيلا ذكية كفاية لتعرف حقيقة شخصيته .

وفي إحدى الصفحات قرأ جيلبرت تلك السطور: " لقد ذكر ب.م ـــ بسوء (ولم تذكر آنجيلا الاسم) ، وأخبرته أنني لن أستمع لهذا الهراء عن ـــ ." وأطرق جيلبرت في حيرة : "هل يكون الحديث عني يا ترى لذلك لم تذكر آنجيلا اسمي؟! وراحت الأسئلة تدور في رأسه بلا هوادة : " ترى ألهذا السبب كانت آنجيلا ترفض قراءتي لليوميات ؟! " " ولماذا لم تذكر آنجيلا اسم هذا الشخص كاملا قط ؟ ولماذا أخفت أمره عنه؟ " لم تكن هذه عادة آنجيلا ، فهي لم تخف عني أمرا قط مهما بدا صغيرا أو تافها . لقد كانت دوما رمز الشفافية والصراحة " .

وهكذا استمر جيلبرت في القراءة : " حكى لي ب.م عن طفولته... كان من الصعب جدا أن أذهب وأعيش في تلك الرفاهية : قبعة واحدة بثلاثة جنيهات كاملة ! " وبدأ جيلبرت يخاطب نفسه: لو أنها ناقشت الأمر معي بدلا من ترهق رأسها الصغير في إيجاد أجوبة لأسئلة كان من الصعب عليها استيعابها في المقام الأول . قام ذلك المدعو ب.م بإهدائها بعض الكتب " كارل ماركس" و " الثورة القادمة ". أخذت الحروف الأولى ب.م تتكرر ، فلم تذكر آنجيلا الاسم الكامل أبدا. ترى لماذا ؟! إن استخدام الحروف الأولى يضفي نوعا من الألفة والمودة والتي لم تكن من عادة آنجيلا على الإطلاق في تعاملها مع الناس.

ومضى جيلبرت في قراءة اليوميات : " زارني ب.م فجأة بعد العشاء. آه ، من حسن الحظ أنني كنت وحدي " . كان هذا من سنة واحدة فحسب . واحتقن وجه

جيلبرت وهو يكرر السؤال في عصبية: " لماذا؟ لماذا من حسن الحظ أنها كانت وحدها؟ لماذا؟! وحاول أن يتذكر أين كان هو في تلك الليلة ... صحيح ، كان في عشاء عمل . ترى كيف كان وضع البيت حين عاد؟ هل كانت الكراسي في مكانها؟ هل كانت هناك بعض الأكواب على الطاولة؟ لم يستطع تذكر أي شئ على الإطلاق من أحداث تلك الليلة اللهم إلا خطابه الذي ألقاه أثناء عشاء العمل ذاك .

أضحى الموقف غير مبرر إطلاقا ، فكيف تستقبل زوجته رجلا غريبا وحدها في المنزل . وبدأ في قراءة المجلد التالي علَّه يجد تبريرا لما حدث. ثم انتقل على الفور لآخر مجلداتها ، ذاك الذي لم يسعفها الوقت لإنهاءه . وما إن وقعت عيناه على الصفحة الأولى حتى قرأ التالي: " تعشينا معا أنا وب.م. كان غاضبا جدا حينها وأخبرني أنه آن الأوان ليفهم كل منا الآخر. حاولت أن أشرح له ولكنه لم يستمع إليَّ ، وهددني أنني إن لم..." وتوقفت آنجيلا عند هذا الحد. وملأت الصفحة بكلمة "مصر". لم يستطع جيلبرت أن يستوعب شيئا مما قرأ ، ولكنه انتهى إلى تفسير واحد منطقي وهو أن ذلك الوغد كان يريد من آنجيلا أن تكون عشيقته!

وهنا غلا الدم في عروق جيلبرت وأخذ يقلب الصفحات بسرعة وهو يتحرق شوقا لمعرفة ردها. ولاحظ جيلبرت أنها توقفت عن استخدام الحروف الأولى من اسم ذلك الشخص ، وبدأت تشير إليه بالضمير "هو". " لقد جاء مرة أخرى... أخبرته أنني لم أتوصل إلى قرار بعد... توسلت إليه أن يتركني وشأني ." لقد روادها عن نفسها في منزلها. ولكن السؤال هنا: لماذا لم تجبه في حينها ؟ كيف استطاعت أن تتردد ولو لدقيقة واحدة ؟ واستمر في القراءة : " كتبت له رسالة...ولكنه لم يرد عليّ... وقام

بتنفيد ما هدد به " . وكانت هذه آخر الكلمات في المذكرات : " ترى هل تواتيني الشجاعة أنا الأخرى أن أقوم بمثل ما قام به؟! "

وهنا تراءى له صورة زوجته وهي تلقي بنفسها أمام السيارة في بيكاديللي . وما إن انتهى جيلبرت من قراءة اليوميات حتى كان صبره قد نفد. وبادر إلى سماعة الهاتف واتصل على الفور بسيسي ميلر وانطلق صوته عبر الهاتف: "سيسي ميلر" . خيم الهدوء على المكان قبل أن تجيب في هدوء : " أنا سيسي ميلر " . وهنا سألها جيلبرت على الفور: " من يكون ب.م ؟ فأجابت سيسي: " إنه أخي " . ودوَّت الكلمة في أذنه... أخوها... أخوها الذي انتحر قبل أسبوعين من وفاة زوجته! وسألته سيسي: "سيد كلاندون ، هل من خدمة أسديها لك ؟ " أجاب في أسى: " لا وشكرا " . وأغلق السماعة في هدوء .

وهكذا تسلَّم جيلبرت نصيبه من الميراث. لقد أخبرته آنجيلا بالحقيقة . وعبرت الشارع متعمدة أمام سيارة مسرعة لتلحق بحبيبها ، وتهرب منه.... من زوجها!